٢٥ ــ صراع

بين الحياة والرأى صراع خطير فى هذه الأيام تشهده مصر ، فيثير فى نفسها ألما لاذعا ، ويقر فى قلبها حزنا عميقا . وغريب جدا أن يقال إن بين الحياة والرأى صراعا ، ولكن هذا على غرابته هو الحق الذى لاشك فيه . فالمصريون جميعا يحبون حرية الرأى ، ويحرصون عليها ، ويودون لو ظفروا بها ، ويكرهون كل الكره أن يحرم بعضهم مهما يكن حق الاستمتاع بها . ولكن المصريين جميعا يحبون الحياة ، ويحبون الحياة الحلوة الناعمة ــ وكثير منهم مع الأسف الشديد ــ لم ينشأ تنشئة حرة ، ولم يكوّن هذا التكوين الذى يمكنه من أن يفهم الحياة على وجهها ، ويقدرها حق قدرها ، ويضعها فى الموضوع الذى يجب أن تكون فيه . ويعلم أن الحياة فى غير حرية موت ، وأن الحياة فى غير كرامة موت ، وأن الحياة فى غير عزة موت .

نعم بين المصريين ــ مع الأسف الشديد ــ جماعة يخيل إليهم أن الحياة هى الحركة والنشاط ، وهى الطعام والشراب ، وهى اللذة واللهو ، وهى الفكاهة والمزاح ، وهى قضاء الوقت بين طائفة من الأعمال الآلية وطائفة من اللذات المنحطة ، لا يستطيعون أن يرقوا بالحياة إلى ما فوق هذا ، فهم راضون عن أنفسهم إذا أدوا هذا العمل الآلى ، وهم راضون عن أنفسهم إذا ظفروا بهذه اللذات الفارغة ، وهم على هذه الحياة حراص ، يبذلون فى سبيلها كل شىء ، ويضحون فى سبيلها بكل شىء ، وينزلون من أجلها عن كل شىء ، لأنهم لم يتعودوا أن يؤثروا بها شيئا غيرها ! ولا تقل لهؤلاء الناس إن حياتهم هذه لا ترفعهم إلى طبقة الإنسان المتحضر حقا ، الممتاز حقا من الكائنات الحية الأخرى التى تحيط به ، وتشاركه فى الحياة ! فهم لا يفهمون عنك هذا القول ، وهم إن فهموه عنك لم يقروك عليه ، لأن هذه الكائنات الحية الأخرى لا تختلف إلى المكاتب والدواوين كما يختلفون ، ولا تذهب إلى الأندية والملاهى كما يذهبون ،

(١) ٢٥ ــ ٣ ــ ١٩٣٣ .

ولا تلعب النرد والشطرنج كما يلعبون ، ولا تحكم الناس كما يحكمون ، ولا تأخذ فى ألوان الجد والهزل كما يأخذون . فهم إذن ممتازون من هذه الكائنات الحية . وهم يكتفون بهذا النوع من الامتياز الساذج اليسير . ولا تحدث هؤلاء الناس عن أن الإنسان ليس إنسانا بهذه المظاهر اليسيرة من مظاهر الحياة ، وإنما هو إنسان بعقله الذى يفكر وينتج ، وبإرادته التى تنظم عمله ونشاطه ، وبكرامته التى ترفعه عن الذلة وتمنعه من قبول الضيم ، وبعزته التى تكره له أن يكون أداة فى يد إنسان آخر مهما يكن ، أو فى يد سلطان مهما يعظم حظه من القوة والبأس . لا تحدثهم عن هذا فلن يفهموه عنك ، لأنهم لم يتعودوا مثل هذا الحديث ، وهم إن فهموه عنك لم يقروك عليه ، لأنهم يرون ذلك نوعا من فلسفة الفلاسفة ، وأحاديث الكتب ، لا يحقق مأربا قريبا ، ولا يدنى من لذة حلوة ، ولا يمكن من نيل الدرجة الرابعة أو الثالثة ! ولا يتيح الظفر بعلاوة تزيد المرتب ثلاثة جنيهات أو أربعة ! ولا يجلو من ثغر الوزير إذا دخلت عليه ! ولا يضمن حسن حديث الوكيل إذا وقفت بين يديه !

ومن يدرى ، لعله يقصيك عن المنصب ، ويصرفك عن العمل ، ويضطرك إلى الحرمان ، ويكلفك الصبر على مالم تتعود أن تصبر عليه ، ومن تعود الأكل الرقيق فعزيز عليه أن يرد إلى الأكل الغليظ ، ومن تعود الزى الأنيق فعزيز عليه أن يرد إلى الزى المهمل ، ومن تعود البيت الجميل فعزيز عليه أن يهبط إلى البيت المتواضع ، ومن تعود أن يعود إلى أهله فيراهم راضيين ناعمين ، شق عليه أن يعود إليهم فيرى على وجوههم آيات الحزن ، وعلى أشكالهم مظاهر الضر ، ويحس فى حديثهم نبرات الحزن .

وإذن فما الحرية والعزة والكرامة بالقياس إلى هذه الحياة الناعمة ، يغبطك عليها الصديق ، ويحسدك عليها العدو ، وتمكنك من أن تجتنى زهرات اللهو مختلفة ، وتطمئن إلى أن أهلك آمنون ، ليس عليهم خوف ولا بأس .

فى مصر كثير من هؤلاء الناس ، وهم سواء رضينا أو كرهنا مصدر ما تجده مصر من محنة ، وما تخضع له من فتنة فى السياسة والرأى والمال ، لا لشىء إلا لأنهم يريدون أن يعيشوا ، أو لا لشىء إلا لأنهم لا يستطيعون إلا أن يعيشوا !

هؤلاء الناس هم رسل الذلة إلى قومهم ! وهم طريق الخضوع إلى مواطنهم ! وهو العقبة التى تحول بين بلادهم وبين الكرامة والحرية والاستقلال ! هم يريدون أن يعيشوا ، والطغاة يمهدون لهم سبل العيش ، ويمهدون لهم أسبابه ، ويتقاضون منهم ثمنا لهذا العيش ، شيئا يسيرا لا يؤذيهم ، ولا يعنيهم ولا يكلفهم مشقة ، ولا يحملهم جهدا ، وهو الطاعة . وأى شىء أيسر من الطاعة فى سبيل العيش ، بل أى شىء أيسر من أن تقدم الطاعة ولو لم تطلب منك ، بل أى شىء أيسر من أن تسبق إلى أهواء سيدك فتعرفها حق المعرفة وترضيها حق الإرضاء ، وتريح سيدك من أن يتقدم إليك فى أمر من الأمور ، أو غرض من الأغراض . لولا هؤلاء الناس ما وجد الطغيان سبيلا إلى السيطرة على أى بلد من بلاد الأرض فى هذا العصر الحديث . فقد ارتقى العقل الإنسانى حتى تبين له الرشد من الغى ، وحتى فرق بين الحياة الحرة والحياة المستعبدة ، وحتى فرق بين العزة والذلة ، وبين الكرامة والهوان ، ولكن أخلاق الناس لم ترتق كما ارتقى العقل ، فكان منها القوى ، وكان منها الضعيف . وعرف الطغيان كيف يحارب الأخلاق القوية باستغلال الأخلاق الضعيفة المنحلة .

تستطيع أن تبحث عن الأسباب التى مكنت للطغيان فى الأرض فلن ترى إلا ضعف الأخلاق وفسادها ، وإسراف فريق من الناس فى حب أنفسهم ، وإيثار منافعهم القريبة على كل شىء آخر .

كل شىء فى هذه الأيام يدعو إلى أن تمتلىء النفوس بهذه الخواطر ، هذا الاضطراب فى الآراء بين حين وحين ، هذا العجز عن الثبات على الرأى الواحد أكثر من يوم ، هذا الإعلان للرأى صباحا ، والاعتذار منه إذا كان المساء ، هذا الإقدام الذى يصورك فى صورة البطل ، ثم الاحجام الذى يردك إلى أيسر منازل الرضى والإذعان . هذا التحدث فى الخلوة إلى أصدقائك وأصفيائك بما يملأ نفسك من السخط والإنكار ، حتى إذا كان الجهر والعلن انقلب السخط رضى . واستحال الإنكار تأييدا . هذه البشاشة الظاهرة تخفى بغضا لا يشبهه بغض ، وهذا التنكر الظاهر يخفى حبا لا يشبهه حب . هذا التجنب للأصدقاء مخافة الرقباء ، هذا التقرب إلى الأعداء لإرضاء الرؤساء . كل هذا ليس إلا

مظاهر مختلفة لهذا الصراع الأليم بين حرية الرأى وحب الحياة .

حب الحياة وإيثارها على الحق والحرية ، هو الذى يدفع جماعة من الموظفين إلى أن يتورطوا فى ألوان من الإثم ينكرها النظام ، ويعاقب عليها القانون ، لأنهم يريدون أن يرضوا رؤساءهم ، ولعلهم لو خلى بينهم وبين ضمائرهم لما اقترفوا هذه الآثام ، ولا فكروا فيها ، ولكنهم ضعفاء ، يريدون أن يعيشوا ولا بد من إرضاء الرؤساء ليمكن العيش !

حب الحياة وإيثارها على حرية الرأى هو الذى يسكت العلماء على مضض ، ويضطرهم إلى قبول الضميم فى غير شكوى ، إلا أن يخلوا إليك وأن تكون لهم صفيا وليا . بل حب الحياة وإيثارها على حرية الرأى هو الذى يضطر العلماء أحيانا إلى أن يثنوا على ما يكرهون ، بل إلى أن يحبوا ما يكرهون أحيانا ! فيشكروا لمن أساء إليهم إساءته ، ويحمدوا لمن اعتدى عليهم عدوانه ! ويتمنوا على هذا المسىء المعتدى أن يبالغ فى الإساءة والاعتداء ! حب الحياة وإيثارها على حرية الرأى هو الذى صرف وزارة المعارف عن كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك عن عصر إسماعيل ، وصدها عن أن تقرره لمكاتب المدارس . فالذين درسوا هذا الكتاب ـــ ولست أعرفهم ـــ متعلمون من غير شك ، مثقفون من غير شك ، مؤرخون من غير شك . وهم يعلمون حق العلم أن الحرية أساس التاريخ . وهم يعلمون من غير شك أن الذين يكتبون فى التاريخ ليسوا مكلفين إرضاء القراء ، سواء كانوا سادة أو عامة ، وإنما هم مكلفون أن يرضوا ما يعتقدون أنه الحق . وهو يعلمون من غير شك أن الخطأ فى الرأى العلمى لا يستتبع عقوبة ، وإنما يستتبع مناقشة وردا إلى الصواب . وهم يعلمون من غير شك أن الخطأ فى الرأى العلمى لا يستتبع زهدا فى كتب المخطىء ، وإنما يستتبع رغبة فى قراءتها ، وحرصا على إصلاح ما فيها من الخطأ ، وهم يعلمون من غير شك أن الكتب لا تقرر فى المكاتب لأنها أوعية الصواب وحده ، وإنما تقرر فى المكاتب لأنها أوعية الإنتاج العقلى الذى يحتمل الخطأ ويحتمل الصواب . هم يعلمون هذا كله ولكنهم مع ذلك يأبون أن يوضع كتاب الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعى فى مكاتب المدارس لأنه نقد ناحية من نواحى إسماعيل !

ثم هم يعلمون إن كانوا مؤرخين — وما نظن وزارة المعارف عهدت بكتاب فى التاريخ إلى جماعة من الرياضيين أو الفقهاء . إن الأستاذ الرافعى لم يقل فى السياسة المالية لإسماعيل إلا ما يقوله المؤرخون المحققون جميعا ، فهو لم يخطىء ، وهو لم يتعمد التشويه ، ولكنه قال الحق ، وجد فى تحرى الصواب ، ولكنهم مع ذلك أو قل ولكنهم لذلك يأبون تقرير الكتاب لمكاتب المدارس ، لماذا ؟ لأن هذا العهد السعيد لا يحب الحق ، ولا يذوق حرية الرأى ، ولا يستريح إلا إذا رسمت للناس آراؤهم ومذاهبهم فى العلم والعمل ، وفى السياسة والدين ، وفى التاريخ أيضا . وكذلك يجب أن يكون إسماعيل معصوما من الخطأ ، موفقا إلى الصواب فى كل ما أتى ، وفى كل ما رأى وفى كل ما قال . فمن رأى غير هذا أو قال غير هذا فكتبه خليقة بالمصادرة ، ولعلها أن تكون خليقة بالتحريق ، يعمل ذلك فى ألمانيا ، فلم لا يعلم ذلك فى مصر :

كل شىء مؤلم فى هذا البلد الآن . هؤلاء نفر من الأجانب يضعون كتابا فى تاريخ مصر ، يباع المجلد منه بعشرات الجنيهات ، فتشترى الحكومة منه عشرات النسخ ، وهؤلاء نفر من الأجانب يضعون دائرة معارف عن مصر القديمة فتشترك الحكومة منها فى مئات النسخ إن لم تشترك فى الآلاف . وهذا رجل مصرى يقف حياته وجهوده على أن يدرس تاريخ وطنه ، ويضع فيه كتابا ممتعا ، لم يسبق له مثيل فى اللغة العربية ، ولم تستطع وزارة المعارف ولن تستطيع قبل أعوام طوال أن تضع مثله ، أو أن تضع كتابا قريبا منه . فإذا عرض كتابه هذا على الوزارة لتضعه فى مكاتب المدارس قيل له حجرا محجورا ، حرام أن يوضع هذا الكتاب فى مكاتب الوزارة ومدارسها لأنك قلت فى سياسة إسماعيل غير ما نحب !

تبارك الله ، وهل وثقت وزارة المعارف بأن كل ما فى هذه الكتب الأجنبية التى تشتريها وتنفق فيها الألوف ملائم لما تحب ؟ ومتى كان حب الوزارة أوبغضها مقياسا لجودة الكتب أو رداءتها ، ومقياسا لوضع هذه الكتب بحيث يستطيع أن ينظر فيها الأساتذة والطلاب !

يجب أن يتعزى الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعى بأنه مصرى ، وبأن المصرى غريب فى بلاده الآن ! ويجب أن يتعزى الأستاذ عبد الرحمن بك بأن كتابه

إن لم يوضع فى مكاتب الوزارة الآن فسيوضع فيها غدا كما وضع فيها من قبل . وسيقرأه الأساتذة والطلاب فى غير مكاتب الوزارة إلا أن تصادره إدارة الأمن العام . ويومئذ أهنىء الأستاذ بفوز الشهداء ، ولكن كم أحب لهذا الجيل الناشىء ، كم أحب لهذا الشباب الذى لم يتدنس بالإسراف فى حب الحياة أن يتدبر هذا كله ، ويفكر فى هذا كله ، ويجد منذ الآن فى أن يفهم الحياة على وجهها ، والواجب على وجهه حتى إذا ارتقى بعد حين إلى حيث المناصب ، والإشراف على المنافع العامة ، لم يخضع لهذا الصراع الأليم بين الكرامة والحق والحرية ، وبين حب العيش .